

تأثير الحملة التنصيرية على اليتامى الجزائريين خلال مجاعات 1868-1876
"منطقة الشلف أنموذجاً".

The Impact of the Missionary Campaign on Algerian Orphans
during the 1867-1868 Famine - Chlef Region as a Model-

صص 180 - 196

د. العربي بلعزوز

Dr Belazzouz Larbi

أستاذ محاضر "أ". تخصص: التاريخ الحديث والمعاصر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة: حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)

belaz216@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2019/01/12 تاريخ المراجعة: 2019/02/11 تاريخ القبول: 2019/05/11

ملخص: اقترنت المجاعات التي شهدتها الجزائر خلال النصف الثاني من ستينيات القرن 19م بشخصية (الكاردينال لافيغري) الذي وظف بعض إفرازات تلك المجاعات وما انتهت إليه من مآسي، في مقدّماتها الأطفال اليتامى بعد أن حصد الموت الأغبر أولياءهم، فالصورة التي بقيت عالقة في ذاكرة العارفين بأمر تلك المجاعة هي لذلك الكاردينال وهو يجوب الجزائر حاملا الصليب في يمينه والخبز في يساره يدعو إلى المسيحية، ولكن دون أن نعرف بمعطيات دقيقة حجم وتأثير تلك الحملة الصليبية التي استهدفت هؤلاء الأبرياء، ودون أن نتمكّن من حصر مدى تأثيرها جغرافيا. إنّ هذه الدراسة جاءت لتجيب عن هذا وذاك من خلال وثائق رسمية تضمّنت أرقاما دقيقة عن الحجم والمكان، ولتضع كلّ في موضعه الحقيقي: فهي ترسّخ فكرة أنّ (الكاردينال لافيغري) لم يكن له في الجزائر خلال فترة الدراسة ذلك التأثير الواسع، وتؤكد في ذات الوقت تجذّر وترسّخ الدين الإسلامي في المجتمع الجزائري إلى درجة لم يجد معها أيّ خطابٍ مسيحي من أيّ كان، حتّى في أصعب وأشقّ الظروف. الكلمات المفتاحية: المجتمع الجزائري؛ المجاعات؛ الضحايا؛ اليتامى؛ الكاردينال لافيغري؛ المسيحية؛ منطقة الشلف؛ الجزائر.

Abstract: The famine that reigned in Algeria During the second half of the 1860s was linked to (Cardinal Lavigerie), who had used the secretions of these famines and the tragedies he caused, especially the orphans after the death of their parents. The image that remains engraved in the memory of those who

know this famine is that of this cardinal, carrying the cross on his right and the bread on his left calling to Christianity, but without knowing the exact magnitude and impact of the crusade that aimed at these innocent people, and without being able to limit its geographical impact.

This study came to answer his two questions by means of official documents, containing precise figures on the size and the place, to put everyone in his real place. It is established that Cardinal Lavigerie did not have in Algeria during the study period, a widespread influence; while emphasizing rooting and anchoring of Islam in Algerian society, to such an extent that no Christian speech or project works, even under the most difficult circumstances.

Keywords: Algerian Community; Famine; Victims; Orphans; Cardinal Lavigerie; Christianity; Chlef region; Algeria.

مقدمة: لم تبق عملية التنصير في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية مقتصرة على شعارات مسيحية نظرية فحسب، فبالإضافة إلى الدور الذي أنيط بالبعثات التبشيرية في البداية، باشرت الهيئات الكنسية في الجزائر، مستغلة بعض الظروف التي أوجدتها مختلف السياسات الاستعمارية الظالمة لمباشرة عملية تنصير واسعة بعد مجاعات 1867م-1868م التي شهدتها البلاد، مستغلة ما نتج عنها من شدائد ومصائب على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والصحي للقيام بحملات خيرية، خاصة لفائدة الأطفال اليتامى لسلخهم عن المجتمع الجزائري المسلم، وتحويلهم إلى نصارى.

لم تبق هذه العملية مجرد شعارات فحسب، لأن هذه الدراسة تحمل عينة من أطفال جزائريين يتامى تم احتضانهم (بعد تلك الظروف القاسية)، وتربيتهم على الدين والثقافة المسيحية إلى أن تم تعميدهم، وتغيير أسمائهم بصفة نهائية، وكانت هذه العينة من منطقة الشلف بالخصوص؛ لأن المركز الذي أقيم بضواحي المدينة، كان نشطا وفعالا بشهادات رسمية، وكان إلى غاية سنة 1876م الوحيد الذي تمكن من استكمال كل مراحل التحويل الديني والثقافي لهؤلاء اليتامى.

تهدف هذه الدراسة إلى إزالة تلك الضبابية والإبهام بشأن الموضوع، وتأكيد الواقع الحسي الملموس من خلال إثارتها للإشكالية التالية: إلى أي نتيجة انتهت الحملة الصليبية التي استهدفت الأطفال اليتامى في الجزائر على إثر مجاعة سنة 1867م-1868م؟، وما هي المناطق التي كانت الأكثر عرضة لذلك؟.

البعد الديني للمشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر: لم يخل البعد الديني من الأهداف الفرنسية الاستعمارية للجزائر منذ البداية، وحتى قبل الاحتلال؛ حيث

أنّ اجتماع الأميرالية الذي انعقد سنة 1828م بغرض دراسة خطة إنزال محتمل للقوات الفرنسية على السواحل الجزائرية، والذي ترأسه الكونت "دو شابرول" (Comte de Chabrol) وزير البحرية، كان "دي فريسينوس" (de Frayssinous) وزير الأديان من الحاضرين أيضا، وخلال له لم يخف هذا الأخير إعجابه وتأييده، وتحمسه للمشروع⁽¹⁾، بالإضافة إلى أنّ (الملك شارل العاشر) طلب من كلّ الكنائس في المملكة وخارجها أن تصلي، وتطلب دعم السماء لإنجاح الحملة⁽²⁾، وبعد تحقيق ما رُسم من أهداف، قرّرت الكنيسة أن يؤدّي النشيد المسيحي القديم الخاص بالمناسبات والأعياد والانتصارات (Te Deum)، في كلّ الكنائس التابعة للأسقفية بعد أن بات الصليب يرتفع على شواطئ الجزائر⁽³⁾، وهو ما يعني أنّ الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م كانت لها خلفية دينية أكيدة.

لقد هلّلت الكنيسة الكاثوليكية بشكل عام بسقوط المحروسة، وجاء على لسان رئيس أساقفة مدينة (أكس اون بروفانس) في العاشر من جويلية 1830م ما يلي: "إنّ أمنياتنا وصلواتنا قبّلت، فأعداء فرنسا والمسيحية هُزموا، هؤلاء الذين كانوا يريدون رمينا في البحر وإبادتنا بالسيف قد هُزموا، وتشبّثوا كالغبار في الحقول... والعلم الفرنسي يرفرف منذ خمسة أيّام على أسوار مدينة الجزائر"⁽⁴⁾.

لم يكن هذا التعليق حالة شاذة؛ بل جاء على شاكلة كلّ الخطابات التي تردّت في كلّ الكنائس الفرنسية، وحتّى خارجها، فما هو رئيس أساقفة مدينة (ديجون) الفرنسية يتحدّث عن "نهوض الصليب أخيرا على الشواطئ الجزائرية"، كما ذكر بأنّ "الصليب هو رفيق العلم الفرنسي ملازم له، ولا يفترق عنه"⁽⁵⁾. ولعلّ الملفت للانتباه هو أنّ الملك (شارل العاشر) بسبب مشاكله السياسية عمل على استثمار هذا الانتصار العسكري على المحروسة لتأمين استقرار سياسي لبلاده؛ لذلك طلب من كلّ الأساقفة بفرنسا في رسالة إليهم كتبت في قصر (سان كلو) بتاريخ العاشر من جويلية 1830م للقيام باحتفالات دينية بحضور كلّ السلطات المدنية والعسكرية المحلية. وبذلك شاركت الكنيسة عن قصد، أو دونه، في تحريض العساكر على السّكان المحليين بالجزائر.

لقد تكرّر ذات الأمر بمناسبة انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر سنة 1847م، حيث أصدر أسقف الجزائر قرارًا يقضي بتريد الصلوات والأغاني الدينيّة في كلّ الكنائس بالمستعمرة، بالإضافة إلى صلاة عسكريّة (تقوم بها الجيوش الفرنسيّة التي كانت بالجزائر)، وطلب من كلّ السّلطات أن تمنح هذا الحدث الأهميّة اللازمّة⁽⁶⁾.

إنّ تفسير هذه الفرحة المسيحيّة العارمة نجدها لدى ذات القسّ نفسه؛ حيث وصف الأمير عبد القادر قبل ذلك (بيوغرطة) الجديد إلى أن يقول: "دعونا نفرح في حدثٍ يجعل قلب الملك يرتعش... إنّه سيعزّز السّلام، ويضمن الأمن، ويعطي للزّراعة والتّجارة آفاقا جديدة من الرّخاء، كما سيتيح الجمع بين الأعراق، وسيُمكننا من استقطاب سيول من السّكان، ويفتح للدين وللمستعمرة معا آمالا أكثر روعة؛ لأنّ الذي سقط ليس رجلا فحسب، إنّه علّم، إنّه مبدأ"⁽⁷⁾.

لقد كانت فرحة الفرنسيّين عارمة، جيشا وإدارة وكنيسة، بسقوط مشروع دولة الأمير عبد القادر، الأمر الذي جعل هؤلاء الغزاة يظنّون بأنّ الجزائر وشعبها ستصبح فريسة سهلة وسائغة لهم ولمشاريعهم الإقتصاديّة والدينيّة وغيرها، ولكن في الوقت الذي كان فيه مبعوث الحكومة الفرنسيّة إلى الجزائر يجرب زراعة الكروم في المستعمرة، على بُعد أيّام فقط من عملية التّسليم تلك، اصطدم منذ البداية بترحيب رهيب من الأمير عبد القادر، الذي أعطى تعليماتاً لقادته بانتزاع كلّ ما زُرِع في اليوم من سيقان ذلك النّبات⁽⁸⁾، وهو ما يعني أنّه كان شديد القلق على مستقبل البلاد والعباد معا، وعلى دراية بما ستؤول إليه الجزائر إنّ انتشرت بها تلك الزّراعة، ممّا يعني أنّ الأمير عبد القادر وإنّ كان قد أبعد عن بلاده، إلّا أنّ روحه وظلّه لم تفارقه أبدا وهو ما منح الجزائريّين الإرادة والقوّة والثّبات لمواصلة مسيرة النّضال والكفاح لردّ المحتلّ ومشاريعه.

استعملت الإدارة الاستعماريّة رجال الكنيسة منذ البداية لدعم ومساندة الحركة الاستيطانيّة، وكان الحاكم العام (بيجو) أبرز من سعى لذلك بمنحه للرّهبان (التّرايست) بتاريخ 11 جويلية 1843م المخيم العسكري المهجور (بسطاوالي) ومساحة 1020 هكتار من الأراضي⁽⁹⁾، وكتب (بوديكور) سنة 1856م عن المغزى الحقيقي من

تلك العملية قائلا: "وطنٌ ييجو هؤلاء للقيام بأعمال خيرية مختلفة لفائدة الأهالي" خدمة للكولون؛ لأنه بذلك، حسب رأيه، يضمن لهم أمن وسلم العرب⁽¹⁰⁾. ومن خلال احتكاك هؤلاء الرهبان وغيرهم بالمجتمع الجزائري تولدت لديهم قناعة أن الإسلام لدى الجزائريين راسخ ومتجذر⁽¹⁰⁾ وهو بذلك سيشكل العقبة الأساس أمام المشاريع الاستعمارية، ولذلك راحوا يتحينون كل الفرص للنيل قدر الإمكان من ذلك المعتقد، ونحن لا نبالغ إن قلنا بأن الوضعية التي آل إليها المجتمع الجزائري من فقر وحرمان ومجاعة وسقم هي من صنيع الاستعمار ذاته، ولكن لا نذهب إلى حد القول بأن الهدف من ذلك كان توفير مناخ ملائم لنشر المسيحية، بقدر ما كانت منظومة استعمارية شاملة قائمة على التسلط والنهب والعنصرية والاستعلاء والتهميش.

السياسة الاستعمارية وتراجع المستوى المعيشي للسكان: منذ سنة 1834م بات واضحا بالنسبة للإدارة الاستعمارية في باريس بأن الجزائر هي صيد ثمين لا يجب التفريط فيه، وأن ذلك يسترعي إلحاقها رأسا بالميتروبول (1848م)، ولكن قبل ذلك أدركوا بأن مشاريعهم المختلفة لن تتحقق إلا بهجرة فرنسية وأوربية كثيفة للمستعمرة الجديدة؛ لإرساء قاعدة سكانية متينة تدعم وتساند وتربح في ذات الوقت الجيش الفرنسي في البلاد.

ولم يكن للشعب الجزائري أي موقع، أو مكانة في هذا التصور الاستعماري للأمور؛ فالاستيطان يسترعي حياة أراضي زراعية واسعة وخصبة التي هي ملك للجزائريين في الأصل، ودونما حرج راحت السلطات الاستعمارية تصدر مجموعة من القوانين؛ لكي تُضفي صبغة الشرعية على تجاوزاتها تصب جميعها في اتجاه انتزاع الأراضي من الجزائريين وتمليكها للأوربيين.

وبعد هذه التجاوزات والانتهاكات بدأ التحول الاقتصادي والاجتماعي العميق للجزائريين، حيث فقد أصحاب الأرض القاعدة الأساسية التي يقوم عليها اقتصاد جل الأسر المحلية، وكانت تلك التي حولوا إليها عنوة، لا تفي بالغرض لرداءة تربتها وصعوبة استغلالها، هذا بالإضافة إلى أن سياسة الاعتداء والتفكير طالت أيضا رؤوس الماشية المختلفة التي صودرت بشكل كثيف، خاصة في الثلاثة عقود الأولى من الاحتلال،

علاوة على اتباع سياسة الأرض المحروقة التي استهدفت قطع الأشجار المثمرة في المناطق الثائرة، وبذلك بات المجتمع الجزائري قاب قوسين، أو أدنى من مجاعة رهيبة، خاصة إذا علمنا بأن تلك الأراضي الرديئة التي تُركت للسكان المحليين، لم تعد تُنتج خلال فترات الجفاف ما يكفي الأسر إلا لشهور قليلة فقط، وبذلك بدأت تبرز مع منتصف ستينيات القرن 19م ملامح مجاعة مرعبة وقاتلة.

مجاعة 1867م-1868م، وأثارها على منطقة الشلف: ذكر العنتري أنّ "مجاعات كثيرة وقحط حادّ شهدته الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، تركت آثارها السيئة على سكان قسنطينة وأعمالها، ويضيف أنّه من الآثار التي خلفتها تلك المجاعات والقحط انتشار الأوبئة الفتاكة بينهم كالكوليرا والتيفوس وغيرها، وضياح الثروات المدخرة، وبيع العقارات والأراضي بسبب الضغوطات المختلفة التي أحاطت بهم، ومنها الديون التي تراكمت عليهم من الضرائب العقارية غير المدفوعة، وفوائد القروض الربوية التي كانوا يلجؤون إلى أخذها من البنوك والمُرابين اليهود وغيرهم"⁽¹²⁾.

وبما أنّ قسنطينة خلال الفترة الاستعمارية لم تخضع إلى نظام إداري وعقاري خاصّ؛ بل كانت إحدى العمالات الفرنسية في الجزائر بحكم تقسيم سنة 1848م، فإنّ ما كان يحلّ بها كان يلمّ بالعمالات الأخرى أيضا من دون شك، إنّ نحن استثنينا المعطيات المتصلة بالجوائح: كالجراد، الفيضانات والفتن التي كانت تصيب جهة دون غيرها من الجهات، مع أنّ المؤثر الأساس خلال هذه الحقبة بقي هو المحتلّ وسياساته الظالمة.

وما ذكره العنتري بشأن أزمة سنوات 1866م-1868م؛ كونها كانت "أعظم أزمة بالقياس مع التي قرأ عنها وعایشها، وذكر لها أسبابا تمثلت في: -حدوث الجوائح التي نزلت بالزّرع والنباتات، وأتلفها. -انتشار مرض "الرّهمة" الذي أهلك المواشي سنة 1867م من قلة علفها، وتبينها في فصل الشّتاء.

-زحف الجراد على القطر سنة 1868م، وما أحدثه من تلف بالزّرع والأشجار التي تسببت في انعدام الحبوب بالأسواق وموت المواشي وارتفاع أسعار الحبوب ارتفاعا

فاحشا طيلة ثلاث سنوات، بالإضافة إلى انتشار وباء الكوليرا والتيفوس وغيرهما من الأمراض الفتاكة، وكذا ضياع الأملاك والثروات⁽¹³⁾.

ووصف (العنبري) هؤلاء "المجاعة السوداء" كما سماها، أو أزمة النصف الثاني من ستينيات القرن 19م بقوله: " وفيها أشرف الناس على الهلاك الأليم، والبلاء العظيم، بحيث أنه لم يُسمع في الزمان بمثليها، وقد حصل فيها لضعفاء عامة الخلق؛ بل ولكثير من خواصهم أيضا بادية وحاضرة من التشتت والفناء، وأكل الحشيش ونحوه"⁽¹⁴⁾. وخلالها صار جل المتضررين يُقدّمون على الإقتاتات ممّا تعافه النفس البشرية، ويحرّمه الشرع كأكل القطط والدّم والميتة وغير ذلك من المحرّمات المستفدرة... إلى أن يقول: " فالغني من أهلها (قسنطينة) أفقرته، وصيرت أحواله ضيقة وحرّة، والضعفاء قد أهلكتهم في حينهم، ودمرتهم تدميرا، وما ترك الزمان بعدهم إلا مراسم ديار خالية"⁽¹⁵⁾.

إنّ الصورة التي تناقلتها بعض المصادر الفرنسية عن بعض الجهات بمنطقة الشلف حول مجاعة 1867م وآثارها أكدت ما ذكره العنبري عن قسنطينة، وهو ما يعني أنّ الوضع كان عامّا بالفعل؛ حيث ذكر (الكاردينال لافيغري) عيّنة عن بعض جهاتها، فأورد استنادًا إلى رسالة من أحد رجال الدين ببلدية (سيدي عكاشة) 5 كلم إلى الجنوب من تنس تقول: " إنني وسط العرب، وكلّ يوم يأتون إلى بيت القسّ بأعداد تتراوح بين 15 إلى 20 فرد، أمّنهم جميعا قطعة خبز؛ لكي لا يموتوا جوعا، ولكن المؤسف هو رؤية النساء وهنّ يحملنّ على ظهورهنّ أطفالهنّ، وهنّ أقرب إلى الموتى منه إلى الأحياء، هؤلاء البؤساء محكوم عليهم بالموت؛ لأنّ أمهاتهم لن تقدّم لهم سوى أئداء جافة بسبب الجوع"⁽¹⁶⁾.

كما أنّ المعلومات التي وردت إلى (لافيجري) من أسقف مدينة (تنس) كانت أكثر حزنا: " لقد شاهدنا في شوارع تنس نسوة وهنّ يلتقطنّ بعض الحبوب غير المهضومة العالقة في روث الأحصنة، وغسلها وأكلها بعد ذلك، كما أنّ الأطفال ينافسون الكلاب على بعض العظام المتواجدة في فضلات بعض المنازل"⁽¹⁷⁾.

لقد ساق القدر إلى سكان تنس خلال شهر جانفي السّفينّة اليونانية (الإخوة الثلاث)، التي تحطّمت بالقرب من رصيف تنس، حيث كسّرت موجات قويّة ألواحها؛

مما تسبب في تسرب عدّة قناطر من القمح دفعت بها الأمواج إلى الشاطئ، وهو ما أتاح للسكان التقاط أكبر قدر منها، حتّى وإن كانت ممزوجة بالرّمال ومياه البحر، وساهم ذلك فعلا في توفير بعض الغذاء لقسم من سكان المنطقة⁽¹⁸⁾.

كما أنّ الأخبار التي أوردها قسّ (مليانة) ليست أقلّ قلقاً: "بعد ما أحدثه وباء الكوليرا من خسائر بشرية انتهت مع الأيام الأولى من شهر أكتوبر 1867م، فجأة لاحظنا في شوارع المدينة عدداً كبيراً من الأهالي من كلّ الأعمار ومن الجنسين، منهم من يطلب خبزاً.... والأكثر جوعاً منهم كانوا يسارعون إلى التنافس على فضلات بيوت الأوربيين..."

و ساق أسقف بلدية (خميس مليانة) بدوره نماذجاً أخرى في رسالة منه إلى لافيغري، من بين ما جاء فيها: "نجد كلّ يوم جثثاً على الطريق، وفي الخنادق والأودية مزقتها أنياب الضّباع وابن آوى"⁽¹⁹⁾. كما أورد لافيغري أيضاً رسالة كتبت في 6 أفريل 1868م أشار صاحبها إلى إرساله لبعض المساعدات إلى بعض المناطق في كلّ من (الشلف، بوغار، مليانة، المدية، وسور الغزلان) التي كانت تعاني أكثر من المجاعة، كما نقل لافيغري فيما كتبه خبراً بوفاة 1500م شخص في ظرف 29 يوماً فقط بمنطقة تنس⁽²⁰⁾.

وجاءت ملاحظات (الأبّ بوزي) في ذات السياق أيضاً، ذاكراً بأنّ عدد الضحايا بالشلف بلغ خلال شهرين فقط 400 شخص، وذلك داخل أوصار المدينة فقط، أمّا عدد الضحايا خارجها، فلا يمكن حصره بسبب كثرتهم⁽²¹⁾، كما أدرج (بوزي) مثالا عن أحد القياد الذي كان عدد من يُشرف عليهم 35000 قبل المجاعة، ليصل بعدها إلى 21000 فقط⁽²²⁾.

و كتب (بول بلان) أنّ جريدة "لومونيتار دالجييري" (le Moniteur d'Algérie) تكتّمت عن ضحايا الفترة الممتدة من شهر أكتوبر إلى نهاية ديسمبر 1867م، واكتفت بذكر إحصاء لعدد الضحايا خلال الفترة الممتدة من بداية سنة 1868م إلى غاية شهر أفريل منها فقط، وبلغ ذلك العدد 128812 ضحية في العمالات الثلاث⁽²³⁾، وإنّ نحن اعتبرنا هذه الأرقام صحيحة، فهذا يعني أنّ عدد الوفيات من المجاعة خلال 24 شهر ، أو أكثر فاقت 750 ألف شخص.

إلا أنّ (بول بلان) أورد الأرقام الرّسميّة المصحّح بها عن عدد الوفيات بالجزائر، والتي جاءت على الشكل التّالي⁽²⁴⁾:

- 1867م: 89000 ضحية،

- 1868م: 128000 ضحية.

ولم يكتف (بلان) بسرّد الأرقام الرّسميّة فحسب؛ بل علّق عليها بكلّ جرأة ، فبالاعتماد على ما أوردته الإدارة من أرقام، بلغ عدد الضحايا من 1 جانفي إلى 1 ماي 1868م: 128000 ضحية (بمعدل 1000 شخص يوميًا)⁽²⁵⁾، وهو ما يمثل عُشر (1/10) السّكان، ثمّ قال عنها: "أنّها تقليص، فضييع للعدد، وتزوير للحقائق؛ لأنّها قليلة جدًّا بالمقارنة مع الواقع، ثمّ أشار في هامش ذات الصفحة إلى أنّ الإحصائيات الرّسميّة لسنة 1872م سجّلت تراجعًا في عدد سكان الجزائر المسلمين ب 529027 شخص، وهو ما يمثل خُمس (1/5) السّكان، حتّى ذلك الرّقم لا يبدو حقيقيًّا إنّ نحن احتسبنا ما كان في أحشاء النّسوة الحوامل اللّواتي فارقت الحياة.

كما تحدّث الكاتب عن بعض الممارسات الغريبة من قبّل الإدارة الاستعماريّة في تلك الظروف الاستثنائيّة ككثرة المحاكمات، وامتلاء السّجون بالموقوفين بسبّب حالات "سرقة" لبعض الأشياء من المّعمرين ونحو ذلك⁽²⁶⁾، وهو ما يعني أنّ الإدارة الاستعماريّة بدل أن تعمل على توفير الغذاء للجوعى، راحت تعاقبهم على لُقمة تحصّلوا عليها من هنا وهناك.

تجنّد رجال الكنيسة للتّكفل بالأطفال اليتامى: انطلاقًا من مبدأ "مصائب قوم عند قوم فوائد"، هلّلت الكنيسة في الجزائر وعلى رأسها (لافيجري): لما أفرزته تلك المجاعات من مآسي وتشرّد لعدد كبير من الأطفال اليتامى الذين فقدوا أولياءهم في تلك الفاجعة، حيث كاتب رؤساء تحرير الجرائد الكاثوليكيّة ببعض الدّول الأوربيّة بتاريخ 1 جانفي 1868م قائلاً: "منذ عدّة شهور، عدد كبير من العرب لا يعيش إلّا من حشيش الحقول وأوراق الأشجار التي يكشطونها مثل الحيوانات"، ويضيف في الصّفحة المواليّة: "يذهبون حتّى إلى إخراج جثث الحيوانات من تحت الأرض لأكلها، كما يسرقون أخرى من الكولون، الذين يضطّرون إلى حماية مزارعهم والبندقيّة في اليد"⁽²⁷⁾، وتحدّث لافيجري عن ذلك بشكلٍ عامّ، ولم يخصّ جهة بعينها.

وبعد عرضه للحالة العامة، أفصح عن هدف مراسلاته، حيث كتب: "إذا لم يُؤخذ هؤلاء الأطفال متًا، كما يهدّد البعض بذلك، فسوف يكون لدينا في بضع سنوات، حضانة خِصبة لعمّال داعمين ومؤيدين وأصدقاء للاستعمار الفرنسي، ولنقل صراحةً، بأننا سنشهد ميلاد عنصر عربي مسيحي".⁽²⁸⁾

وكانت الغاية من تلك الرسائل المُوجهة إلى عدّة دول أوروبية مُطالباً المحسنين من المسيحيين للتكفل بمصاريف تربية الأيتام العرب في الجزائر، حيث قال: "لقد جنّت إليكم في ساعة مهيبة لإفريقيا المسيحية، في وقتٍ تعرف فيه الكاثوليكية انتعاشاً على هذه الأرض المملوءة بدماء الشهداء، لقد انضمت كلّ من الكنيسة وفرنسا لرفع أمجاد الماضي، بإرسالي إليكم كرسولٍ للحقيقة والإحسان والسلام".⁽²⁹⁾

كان التّبيّي (التّكفل) يدوم بين أربعة إلى خمس سنوات، أو أكثر حسب سنّ الطفل المعني، كما أوضح بأنّ الشّخص الأوربي المهتمّ بالتّبيّي يتحصّل فوراً على الاسم العربي لليتيم إنّ رغب في ذلك، وكذا تاريخه وصورة عنه، ووعدهم بتلقّي رسالة منه حينما يتمكّن من الكتابة، وفي انتظار ذلك يتلقّون أخباراً عنه باستمرار، كما سمح بإمكانية اشتراك مجموعة من الأشخاص في التّكفل ببيتيم واحد⁽³⁰⁾، كما كان يسمح للأشخاص الذين يقومون بتّبيّي أحد اليتامى بمنح اسم مسيحي له يعوّض اسمه العربي، ويُنادى به مباشرة.

حصيلة الدّعم الكَنسي للأطفال اليتامى: انطلاقاً من قناعة رجال الدّين المسيحيين المبنية على قاعدة ألاّ تطوّر للعرب في الجزائر خارج حَضن الدّيانة المسيحية، أكّد لافيغري قائلاً: "إنّ مهمّتنا هي جعل الجزائر مهداً لأمة كبيرة، سخيّة، مسيحية، ... فرنسا أخرى... أن ننشر حولنا، بهذه المبادرة المتحمسة... الأضواء الحقيقية لحضارة يكون الإنجيل هو مصدرها وقانونها".⁽³¹⁾

كما أشار في ذات السّياق إلى التّناجح المعتبرة المحقّقة في الجزائر وخارجها، وذكر عدّة مؤسسات: (دار الأيتام بمدينة مرسيليا، ومركز سان لوران دولت، ومركز الأطفال المتدربون بمدينة نيس بفرنسا، بالإضافة إلى مركز الحراش، والسيدة الإفريقية بمدينة الجزائر، ودار الأيتام الكبرى للبنات بالقبة، بالإضافة إلى مركزيّ سان سيبريان بالعطاف على بُعد 40 كلم إلى الشّرق من مدينة الشلف، ومركز (سانت مونيك)

بالرّوينة الذي كان يُبعد عن هذا الأخير ب 6 كلم شرقا، هذا بالإضافة إلى مركز مسرغين بمنطقة وهران، أمّا في عمالة قسنطينة، فكانت المراكز تابعة للمؤسسات الدّينية القائمة مباشرة، دون بناء مراكز خاصّة بذلك؛ لأنّ العمالة كان يتركّز بها أكبر عدد من السّكان المسلمين والعدد الأقلّ من الأوربيّين، الأمر الذي قد يُخرج رجال الدّين المسيحيّين.

وبشكل عام تحدّثت المصادر عن أعداد بالآلاف لهؤلاء اليتامى الذين تمّ استدراجهم إلى مختلف المراكز والمؤسسات المسيحيّة، إلّا أنّ الأرقام الحقيقيّة، كما سيأتي لم تصل إلى ذلك الحجم؛ وقد يُفسّر ذلك بأنّ العائلات (بالمفهوم الواسع) سحبت الأطفال الذين يحملون اسمها، حتّى وإن كان الوالدين قد تُوفّيّا، كما قد يُفسّر أيضا بأنّ لافيّجري في رسائله تعمّد المبالغة في العدد؛ لكسب أكبر قدر ممكن من المساعدات الماليّة.

ومن خلال معاينة التّقرير الذي طالب حاكم الجزائر العام بتحضيره، بعد أن تمّ تخصيص مبلغ 75000 فرنك في ميزانيّة المستعمرة لسنة 1876م لفائدة المؤسسات التي تشرف على اليتامى العرب ضحايا مجاعة 1867م والذين تمّ تجنيسهم، وذلك بغاية تزويده بمعطيات دقيقة عن تلك المراكز لتقسيم ذلك المبلغ عليهم، وتضمّنت المعطيات التي طلبها ما يلي⁽³²⁾:

-عدد، سنّ، ووضع اليتامى المتجنّسين والمتزوجين المتواجدين بالعمالات الثلاث إلى غاية 31 ديسمبر 1875م.

-عدد، سنّ، ووضع اليتامى المتجنّسين، غير المتزوجين.

-عدد، سنّ، ووضع اليتامى، غير المتجنّسين بعد.

كانت المعطيات التي أُرسّلت من ولّاة العمالات الثلاث بتاريخ 24 ديسمبر 1875م على الشكل التّالي⁽³³⁾:

العمالة	ذكور	إناث	المجموع
الجزائر	237	207	444
وهران	32	54	86
قسنطينة	9	15	24
المجموع	278	276	554

تجب الإشارة إلى أنّ كلّ الحالات الأولى (المتجنسين والمتزوجين) تركّزت بمنطقة الشلف وضواحيها، حيث تواجدوا جميعا بمركز (سان سيبريان بالعطاف)؛ إذ بلغ عددهم 50 زوجا (أسرة)، بالإضافة إلى 30 طفلا كانوا نتيجة ذلك القران، كما أنّ المركز كان يضمّ أيضا 39 شخصا (متجنسين بعد تعميدهم)، إلّا أنّهم غير متزوجين، وهو بذلك يعتبر أنجح مركز بالمفهوم الإستعماري في هذا الجانب، علاوة على وجود 27 حالة من غير المتجنسين وغير المتزوجين بغد في مركز (سانت مونيك) بالرّوينة ضواحي الشلف.

وتمّ إحصاء 68 حالة من المتجنسين (المعمّدين) المتزوجين من منطقة الشلف وضواحيها من أصل 50 أسرة (100 شخص)، أمّا البقية، فكانت من مناطق مختلفة هي: (سور الغزلان - الجزائر - برج بوعريّج - تلمسان - الأغواط - مستغانم - وفور ناسيونال (ببلاد القبائل)، ولكن كانت الحالات قليلة، باستثناء منطقة (سور الغزلان) التي وردت منها عشرة (10) حالات.

أمّا القائمة الاسميّة لليتامي الجزائريّين الذين تمّ تمسيحهم في منطقة الشلف على إثر مجاعات 1867م والتي تراوحت سنوات ميلادهم بين سنوات (1849م-1853م) فجاءت كالآتي⁽³⁴⁾:

الاسم الأصلي	المنطقة	إ. المسيحي	الاسم الأصلي	المنطقة	إ. المسيحي
الزّهرة بنت الطاهر	تاشتة	كارولين	رقية بنت الحاج	تنس	ماريا
بن عيسى بن أحمد	مليانة	فرانسوا	سعدة بنت عبد القادر	ثنية الحد	زوي
حليمة بنت الحبيب	تنس	بانجامين	بوزيد بن العربي	بني بودوان	جوزيف
محجوبة بنت محمد	العطاف	مارغوريت	حليمة بنت خليفة	الشلف	ماجدالين
الطاهر بن عمر	تنس	ماتيو	جلول بن طويل	مجاجة	جون

حليلة بنت عمر	تنس	بارتيلد	فاطمة بنت موسى	تاشة	آنا
عائشة بنت العربي	الشلف	إيزابيل	العربي بن قدور	العطاف	بيار
عائشة بنت أحمد	أبو الحسن	جان	رقية بنت منصور	شرشال	فاليري
الطاهر بن قدور	الشلف	فرانسوا	الحاج بن محمد	تاشة	غ. بيار
يحيى بن أحمد	مليانة	باسكال	قدور بن طويل	مجاة	جوليان
أم الخير بنت محمد	شرشال	جوزيفين	عبد القادر بن محمد	تنس	فيليب
قدور بن أحمد	الشلف	بروسبار	فاطمة بنت الطاهر	بني بودوان	إيليزا
فطمة بنت أحمد	تنس	لودفين	عبد القادر بن قدور	الشلف	ج. باتيست
زينب بنت عبد الله	مليانة	أولاي	فاطمة بنت الطاهر	الشلف	آلين
قدور بن أحمد	مليانة	شارل	عبد السلام بن جيلالي	الشلف	جون لويس
علي بن جلول	بني درجين	أنطوان	العالية بنت محمد	الشلف	باريتي
محمد بن جلول	تنس	فيليب	قدور بن محمد	الشلف	بن جامين
عائشة بنت محمد	ثنية الحد	ديزيري	العالية بنت محمد	أبو الحسن	آلزا
بن عبد	عين	جاك	العربي	بني راشد	ألفونس

الزّحمن	الدّفلّ	بلقاسم			
فاطمة بنت قدور	مليانة	جوزيفين	حليمة بنت عبد القادر	أبو الحسن	ماري جان
موسى بن عمر	عين الدّفلّ	بارتيليمي	العربي بن عيسى	تاشتة	فرانسوا
محّمّد بن بوزكري	تنس	مارسيال	خيرة بنت محّمّد	بني راشد	ماري
محّمّد بن معمر	تنس	ليون ايتيان	فاطمة بنت معروف	وادي الفضة	أولاليون
فاطمة بنت جيلالي	تنس	ماري كارولين	محّمّد بن جيلالي	الشلف	بول أرسلان
فاطمة بنت الميسوم	الشلف	أوسلين	فاطمة بنت عيسى	تنس	أوغستين
محّمّد بن صحراوي	العطاف	بول سيبريان	أحمد بن قويد	بني بودوان	لويس
فاطمة بنت خليفة	الشلف	أنطوانيت	مريم بنت أحمد	مليانة	كارولين
سعدية بنت إبراهيم	أبو الحسن	ماري لويز	محّمّد بن سعيد	تالعصة	ايزي فور
محّمّد بن أحمد	تاشتة	ميشال	عبد القادر بن محّمّد	وادي الفضة	سيبريان
محّمّد بن أحمد	الشلف	أ. أليكسوندر	حموني بن محّمّد	الشلف	مارك
محّمّد بن جلول	تاشتة	ليون	عبد الله بن جلول	عين الدفلّ	فرانسوا
جمعي بن علي	و. الفضة	فيكتور جون	عبد القادر بن عيسى	بني حواء	ج. أوجان

الطيب	بني بودوان	بول	عمر	تنس	جوليان
محمّد	تنس	آلبار	بن عودة	تاشة	جيروميو

Duguerry, Chef des Missionnaires d'Afrique d'Alger, Liste nominative des orphelins arabes mariés et naturalisés français. (s.d). ANOM. GGA. L//53

تجب الإشارة إلى أنّ هؤلاء هم من تجنّس فقط حتّى ذلك التاريخ في كلّ ربوع الجزائر⁽³⁵⁾، كما أنّ الأسماء وردت بالشكل القديم بحكم أنّ قانون الحالة المدنية الذي أقرّ بالأسماء العائلية الجديدة لم يصدر إلّا سنة 1882م (قانون الحالة المدنية)، كما أنّ عملية تغيير دين وأسماء هؤلاء تمّت خلال سنتي (1874م-1875م).

النتائج:

- في مقدمة ما يمكن استنتاجه مع نهاية هذا البحث هو حجم أنانيّة وقساوة المستعمر، الذي عمل بشتّى الوسائل على تجريد الجزائريين من وسائل عيشهم بشكل كريم، وتركهم فريسة سائغة وسهلة للمجاعات والأمراض القاتلة، الأمر الذي انتهى باختفاء حُمس سكان البلاد في ظرف قياسي (1867م-1868م).
- لم تهتمّ الإدارة الاستعماريّة برفع الغبن عن السّكان بشكل ناجع ونافع؛ بل تركت الكهول والشيوخ من الجنسين يواجهون مصيرهم المحتوم، أمّا الكنيسة، فلم تهتمّ إلّا بالأطفال اليتامى، ولم يكن ذلك من باب إنساني؛ بل لأمر في نفس يعقوب، فالفرصة ثمينة، ولا يجب تضییعها بنظر لافيّجري وغيره.
- إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة مارست في الجزائر دورًا استعماريًا أكيدًا، الأمر الذي تُثبتته الوثائق المتوفرة، ولكن لا يمكننا إبداء ذات الحكم على كلّ الفترة الاستعماريّة في غياب ما يثبت ذلك، وفي ذات الوقت لا يمكننا نفیّه أيضًا انطلاقًا من ذات المنطق.
- لم يكن حجم المُجنّسين (المتنصرين) في الجزائر عقب مجاعات 1867م-1868م كبيرًا، كما قد يعتقد البعض، حيث أنّ عددهم إلى غاية 1876م لم يُفُّق 100 حالة (50 أسرة) أنجبت 30 طفلًا، أمّا مجمل الذين كانوا لا يزالون بمختلف المراكز والمؤسسات الدينيّة المسيحيّة، إلى غاية ذات الفترة لم يتعدّ 554 حالة.

- إنَّ الأطفال اليتامى، رغم حداثة سنّهم، إلّا أنّهم تمكّنوا من مقاومة الخطاب المسيحي وممارسات الرهبان، بالنظر إلى العدد الكبير الذي نُقل منهم إلى مختلف المراكز الدينيّة؛ بل أنّنا نُسجل حالة فرار (في الغرب الجزائري) من القبضة المسيحيّة، حتّى بعد عدّة سنوات من المجاعات.

- أدرك رجال الدّين المسيحي، من دون شك، بأنّ تحويل الشّعب الجزائري عن مُعتقده الرّاسخ، والمتجذّر ضرب من الخيال، ولا يعدو أن يكون أمنيّة فحسب، وتيقّنوا بأنّ الكنيسة، في ظلّ هذه المعطيات، لا يمكنها أن تقوم بأيّ دور استعماري فعّال بعد ذلك.

- تحوّلت الاستراتيجية الاستعماريّة من الارتكاز على الكنيسة إلى التّشبث بالمنظومة التّربويّة لبلوغ الأهداف الاستعماريّة عن طريق المدرسة، التي وإنّ بدأت قبل ذلك، إلّا أنّ هذه القناعة تأكّدت أكثر بعد مجاعات نهاية ستينيات القرن 19. كان العامل الدّيني أساسيّ في المنظومة الاستعماريّة، حيث بمجرد أن عمّد (محمّد، أو أحمد) تحوّلت نظرة المستعمر إليه جذريّاً، بحيث بات مستوطناً كباقي الأوروبيّين، ومُنحت لهم أراضي تفوق 20 هكتار.

- رغم أنّ ما كتبه العنّري، وأكّده القساوسة والرّهبان عن بعض ممارسات الجزائريّين التي تثير الازدراء والاشمئزاز، إلّا أنّ ذلك يجب ألاّ يبعث على الخجل؛ لأنّهم دُفعوا إليها دفعاً من قبل منظومة استعماريّة ظالمة مستبّدة وجائرة.

- أظهر الجزائريّون رغم الفاقة والجوع سُموّاً أخلاقياً ورفعة إنسانيّة واحتراماً لبعضهم البعض أحياءً وأمواتاً؛ فلم تُؤكّل الميئة الحيوانيّة ولا البشريّة، رغم بعض الكتابات الأوروبيّة المتحاملة.

الهوامش:

(1). للمزيد عن الموضوع، ينظر:

Pierre Gourinard, Les Royalistes en Algérie de 1830 à 1962 : de la colonisation au drame, Collection Xénophon, Atelier Fol' Fer, Anet, France, 2012, p. 23.

(2).Chambre de Commerce de Marseille, (C.M-MQ52/03).Mandement de monseigneur l'évêque de Dijon, relatif à la prise d'Alger : 17 Juillet 1830.

(3).Ibid.

- (4).Discours prononcé par L'Archevêque d'Aix, le 10 juillet 1830, à l'occasion de la prise d'Alger. Voir : Pierre Gourinard, Les Royalistes en Algérie de 1830 à 1962, de la colonisation au drame, Editions Atelier Fol'Fer, Paris, 2012, p.296.299.
- (5).Mandement de l'évêque de Dijon Jacques Raillon, qui ordonne de chanter le Te Deum,(C.C.M.) op., cit.
- (6).Mandement de Louis-Antoine-Augustin Pavy, évêque d'Alger, le 1^{er} janvier 1848à l'occasion de la soumission d'Abd-El-Kader, voir : Pierre Gourinard, op., cit, p.300.
- (7).Mandement de Louis-Antoine-Augustin Pavy, évêque d'Alger, le 1^{er} janvier 1848, op., cit.
- (8).Marcel Richier, « La Vigne en Algérie »,Illustration Algérienne, Tunisienne et Marocaine, n :32, du 6 juillet 1907.
- (9).رغم ذلك الإجراء، إلا أنّ (ايميريت) أشار إلى وجود صراع كبير بين العسكريين ورجال الكنيسة في تلك الفترة. للمزيد ينظر : Marcel Emerit, **La lutte entre les généraux et les prêtres au début de l'Algérie française**, in : Revue Africaine, volume 97, année 1953.p.66-97.
- (10).Louis Baudicour, La Colonisation de l'Algérie : Ses éléments, Editions Jacques Lecoffre et Cie, Paris, 1856, p.54.
- (11). حيث أداروا ظهورهم جميعا للقانون المشيخي الصادر سنة 1865م الذي مكّهم من الجنسية الفرنسية بشرط التخلي عن الأحوال الشخصية، كما أنّهم عزفوا إلى وقت طويل عن التردّد على المدارس الفرنسية والمصحات الفرنسية ظلّاً منهم بأنّها مؤسسات ذات بُعد ديني مسيحي.
- (12).صالح العنترى، مجاعات قسنطينية، تقديم وتحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص 15.
- (13). العنترى، مصدر سابق، ص. 17؛ --- (14)نفسه؛--- (15)نفسه، ص 18.
- (16).Recueil de Lettres publiés par l'Archevêque d'Alger, op., cit, p. 30.--- (17).Ibid, p. 32.--- (18).Ibidem.
- (19).Recueil de Lettres publiés par l'Archevêque d'Alger, op., cit, p. 33.--- (20). Ibid, p. 38.
- (21).L'Abbé BURZET, **Histoire des Désastres de l'Algérie (1866- 1867- 1868)**, Imprimerie Centrale Algérienne, Alger, 1869.--- (22).Ibid, p. 82.--- (23). Ibidem, p. 83.
- (24).Paul Blanc, **La vie de colon en Algérie**, Imprimerie de la Vigie Algérienne, Alger, 1874, p.86.
- (25).Ibid, p.88.--- (26).Paul Blanc, op., cit. p.90.
- (27).Recueil de Lettres publiés par l'Archevêque d'Alger, sur les œuvres et missions africaines, Typographie de Henri Plon, Paris, 1869. p. 27.--- (28).Ibid, p. 41.
- (29). Charles- Martial Allemand- Lavigerie, Archevêque d'Alger, délégué apostolique du Sahara et du Soudan, **Recueil de lettresur lesœuvres et mission africaines**, Typographie de Henri Plon, Paris, 1869, p.7.--- (30)؛ L'Archevêque d'Alger, **Orphelins Arabes d'Alger, leur passé, leur avenir, Leur adoption en France et en Belgique**, Librairie Classique d'Eugène Belin, Paris, 1870, p. 6.--- (31).Recueil de Lettres publiés par l'Archevêque d'Alger, op., cit, p. 14.
- (32).Le Directeur général des affaires civiles et financières, Rapport au Gouverneur Général civil, sur la situation au 31 décembre 1875, des orphelins arabes de la famine de 1867, dans les trois départements, Alger le 17 mars 1876. ANOM. GGA. L//53.
- (33). Ibid.
- (34).Duguerry, Chef des Missionnaires d'Afrique d'Alger, Liste nominative des orphelins arabes mariés et naturalisés français. (s.d). ANOM. GGA. L//53
- (35).إنّ نحن استثنينا منطقة القبائل، حيث كان ينشط الآباء البيض منذ فترة، والتي لم تكن معنية بمجاعات 1867م حسب المصادر، وبذلك لم تشهد حالاً يُتَم، ممّا يفسّر عدم وجود مراكز دينيّة في هذا الإطار.